رثاء بطل

محمد ياسر القضماني

تلقيت نبأ استشهاد البطل المسلم (جوهر دودايف) زعيم الشاشان الصامدين .. فأصبت بالذهول .. لقـــد دوخ بطلنا الروس الظالمين ، وقد حاولوا قتله مراراً ، ثم جاء الأجل !

نعم إنه الموت ، وإنه قدر الله ، ولكن هل الموتات واحدة ؟!

كثيرون هم الذين يجارون الأوضاع في بلادنا وعصرنا ، بل قل : هم عبيد الأوضاع ينساقون فيها حيث تـــشاء العامة ، أو يهوي الرعاع !

ولكن قليل هم الذين يؤرق مضاجعهم ويشغل نفوسهم واقع الأمة المهين ، فيتقد بين جوانحهم أوار الحرقة علـــى واقع الإسلام والمسلمين ، وتربو في قلوبهم الغيرة التي لا تخمد إلا باستشهادهم أو بموتهم أحرارا .

والأمة يكرمها ربها تعالى الرحيم بين الحين والحين بأمثال هؤلاء المتحرقين أصحاب الغيرة الصادقة . فيلـــهبون في الأمة المشاعر ، ويحيون ما مات من عواطف ، وتكون تضحياتهم أشبه بالصاعقة التي تضرب المسلم فتنبهه من سكراته وغفلاته ، وإلفه الفتور ، وعشقه للتواكل ، ورضائه بالدنيّة !

و(جوهر) هذا البطل –رحمة الله عليه– نحسبه من هذا الصنف الذي تكرم الأمة بهم ، لقد قرأت وسمعت عنه مـــا لا يصدر إلا عن مخلصين أتقياء ، نذروا أنفسهم وطاقاتهم وما ملكوا لخدمة دينهم وقضيتهم الإسلاميّة .

وقد عرفت عظمة نفس هذا البطل عندما سئل عن حجم الاعتراف الدولي بدولته ؟ وهل يسعون لتوسيع هـــذا الاعتراف وتأكيده من قبل المجتمع الدولي ؟ فقال : الاستقلال لا يُمنّ به أحد على الشعوب ولكنه يُنتزع انتزاعاً !!

أرأيت إلى هذا الجواب ؟!

حقاً إنّ حريتي لا يمن بها علي أحد من البشر ، ولا يهبها لي مخلوق مثلي !

أنا الذي إن عشقت الحرية استرخصت في سبيلها كل ما أملك ، ولهانت علي الدنيا كل الدنيا ، بما فيها ، ومـــن فيها ، حتى أصل إلى هدفي ومرادي !

وإذا عزَّ علي البذل ، وشقّ عليّ السخاء والعطاء ، وهان علي أن أضحي بكل شيء في سبيل رغائبي وشهواتي ، واثاقلت إلى الدنيا وأصبحت حبيس لذاتها الفانية ، فكيف أعرف -حينئذ- طعم الحرية ، أم كيف أتنـــسم نـــسيم الكرامة والإباء ؟!

* * *

لقد عانى إخواننا الشيشان معاناة مريرة من هؤلاء الروس الظلمة ، الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، الذين ضموا في إمبراطوريتهم المستكبرة شعوباً مسلمة بالحديد والنار ، ولما تضعضعت هذه الإمبراطورية وانفرط عقـــدها ، وأخذت الجمهوريات تستقل عن الاتحاد السوفياتي ضنُّوا على هذا الشعب أن ينال استقلالاً متميزاً ، فبعد أن انتخب جمهور الشيشانيين (جوهراً) رئيساً في ١٩٩١/١٠/٢٧م ، وأعلنوا في تشرين الثاني-نوفمبر ١٩٩١م عن قيام جمهوريـــة الشيشان المستقلة ذات السيادة عن اتحاد الجمهوريات الروسية ، بدأت المكائد من الروس تعود إلـــيهم ، لتعيـــد إلى الذاكرة اضطهاد الروس لهم في الماضي الذي ما يزال غضاً في ذاكرة التاريخ .

بل إنّ (جوهراً) نفسه كان ضمن من ذاق مع أهله جور الروس ، عندما شردوا من ديارهم مع عشرات الآلاف من الشيشان إلى سيبيريا وكازاخستان ويحدث بنفسه فيقول : (عشت مثل سائر الشعب في الخنادق سنوات طويلة ، وفقدت والدي وإخوتي الأكبر سناً ، وعشنا لا نجد لقمة الخبز ، وضرب الحكم الشيوعي حظراً حديدياً على الـــدين حتى يقضي على روح هذا الشعب ، لقد كان الشيوعيون يخططون لمحو هذا الشعب من الوجود . وفي هذه الظروف نشأت وتربيت مع جيلي في المنفى ، وكنت أفكر باستمرار كيف أناضل وأكافح هذا الشر والعدوان ؟ وفي نـــوفمبر ١٩٩١م أعلنا عن استقلال دولة الشيشان) .

وقد كان -رحمه الله- عندما كان ضابطاً في الجيش لا يسمح بإزعاج المصلين ، عندما كان ضَبْطُ نـــسخة مـــن القرآن الكريم ، أو حتى داخل الجيش يمثل جريمة .

وعندما سئل عن إقامة المجتمع الإسلامي في بلادهم قال : (قبل ثلاث سنوات لم تكن هناك عائلة إلا وتقدم الخمر على السفرة مثل الماء ، والآن صارت هذه العادة غير موجودة حتى أصبح في شهر رمضان لا يوجد شخص واحـــد يبيع الخمر .. هذه أمور تحدث دون إصدار قوانين ، ولكن عن قناعة وإيمان من الناس ، وهذا هـــو حجـــر الزاويـــة عندنا ، نحن نقنع الناس ، نربي الأجيال على الاقتناع بالإسلام ، وقد أفسحت المجال للتعليم الإسلامي منـــذ الـــصغر فأصبحت هناك مدارس إسلامية في القرى تؤدي رسالتها إلى جوار المسجد ، وتوجد أيضاً جامعة إسلامية ، وأؤكد

لك أن الشعب من الناحية الروحية مستعد لتقبل الشريعة الإسلاميّة عن عاطفة ، ولكن علينا أن نوفق دائماً بين الوعي والعاطفة) .

ويقول جوهر : (كنا نحتل المركز الأخير رقم (٧٣) في مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي وكان لدينا أقدم معدات وتكنولوجيا في العالم من الناحية الإنتاجية ، وأكثر بيئة ملوثة في العالم ، وأكبر نسبة وفيـــات في الأطفـــال ، وأقل مستوى لحياة الفرد في آسيا ، إضافة إلى العدوان والتخريب الواقع ضدنا من روسيا ، ومع كل ذلك أثبتنا للعالم قدرتنا الاقتصاديّة والإنتاجية ، فقد خططنا برنامجاً اقتصادياً أدى إلى ارتفاع مستوى الإنتاج خلال السنوات الـــثلاث الماضية ، وهذا هو ما أثار غضب ودهشة المسؤولين في روسيا) .

وقال-رحمه الله تعالى- : (أتمنى استقرار الأوضاع في منطقة الخليج لأن ذلك فيه حلّ لنـــصف مـــشاكل العـــالم الإسلامي ، حيث أن كثيراً من الدول العربيّة والإسلاميّة تضررت من عدم استقرار الأوضاع .

ومن ناحية أخرى فالشعوب العربيّة وخاصة منطقة الشرق الأوسط إذا اتّحدت وحافظت على مقـــدراتها فإنهـــا ستحول المنطقة إلى جنّة .

أخيراً أناشد الدول العربيّة والإسلاميّة الالتفات تحت لواء واحد وأن تتبع أوامر الله ، وتجتنب نواهيه حتى يحفظها الله بحفظه ويكلأها برعايته) .

وبعد : فمتى يستشعر الناس مأساة إخواننا هؤلاء ، الذين يدينون بديننا ، ويتجهون إلى قبلتنا ، ويكتبـــون قبـــل الاضطهاد الروسي بحروفنا ، حروف القرآن الكريم . وزاد حجيّ لهؤلاء عندما رأيت صور بعض المجاهدين منهم وكان شيخاً طاعناً في السن ولحيته تملأ صدره . إنهم معتزون بدينهم يدافعون عنه شيباً وشباباً .

ومما يقولونه في نشيدهم الوطني :

في أعشاش النسور أرضعتنا أمهاتنا

لهذه الأمة ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا

وبلادها عندما تتفجر بالبارود

من المحال أن ندفن فيها إلا بشرف وكرامة

لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله

لن نستكين أو نخضع لأحد إلاّ الله

فإنها إحدى الحسنيين نفوز بها : الشهادة أو النصر

لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله

إذا حاولوا تجويعنا سنأكل جذور الأشجار

وإذا منع الماء عنا سنشرب ندى النبات

فنحن في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا

ونحن دائماً سنبقى مطيعين لله ثم للوطن ولهذه الأمة

لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله

* * *

أعزَّ الله إخواننا ، وأيدهم بنصره ، وآواهم وألف بين قلوبهم دائما

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ... ﴾ [المائدة : ٥٤]

المراجع :

- قضايا هامة في حاضر العالم الإسلامي ، محي الدين القضماني ، ص (١٠١-١١٢) ، المكتب الإسلامي .
- التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ج٢١ ، ص (٢٠٤-٢٠٦) ، المكتب الإسلامي .
- مجلة المجتمع الكويتية ، العدد (١١٢٨) والعدد (١١٣٨) .